

دراسة التاريخ عن أرنولد توينبي

للدكتور اسحق عبيد

دراسة التاريخ عند ارنولد توينبي

بقلم : الدكتور اسحق عبيد

ان « دراسة التاريخ » لأرنولد توينبي دراسة عملاقة تقع في اثني عشر جزءا ، وتضم بحرا من المادة التاريخية على النحو الآتي :

١ - يقسم الكاتب مادته التاريخية الى وحدات يطلق على كل منها لفظة « مجتمع » ، وهي تتمثل عنده في خمسة : مجتمع أوروبا المسيحي ، مجتمع الشرق المسيحي (البيزنطي) ، مجتمع العالم الاسلامي ، المجتمع الهندوكي ، ثم مجتمع الشرق الاقصى (١) . وهذه المجتمعات الخمسة ما زالت باقية كحضارات .

٢ - هنالك أيضا مخلفات « متحجرة » لمجتمعات قد بادت : من ذلك مجتمع النصارى من المنافزة والنساطرة ، والمجتمع اليهودي ، الى

Toynbee, A. A Study of History, Vol. I, pp. 34-35 :

(١)

«We can hardly advance further in our search for an «Intelligible field of Study» without reviving or inventing some name to denote our society as a whole and to distinguish it from other representatives of the species it seems preferable to revive the name « Western Christendom » On this plane, we can distinguish unmistakably the presence, in the world of today, of at least four other living societies of the same species as ours : Orthodox Christian or Byzantine Society an Islamic Society a Hindu Society ... a Far Eastern Society ».

جانب وحدات أخرى متنوعة من البوذيين والجانيين في الهند (٢) .

٣ - يرى الكاتب في الاختلافات والعلاقات بين هذه « الحضارات » الخمس اختلافات « مسكونية » ، بينما يطلق على الاختلافات في داخل اطار « الحضارة » الواحدة ، مثل الاختلافات بين اسبرطة وأثينا مثلا ، اختلافات « ابروشية » ، أى داخلية (٣) .

٤ - ان حقل الدراسة التاريخية متسع للغاية ولا حدود له ، ولكن على المؤرخ أن يستبصر ويميز الوحدات الحضارية ويقوم بدراسة العلاقات على المستويين السابق ذكرهما . ويركز توينبى اهتمامه على مجتمع غرب أوروبا « المسيحي » فيدرسه دراسة تراجعية حتى يصل الى جذوره الأولى . ثم يطبق الكاتب نفس المنهج على الحضارات الأربع المتبقية ، التى هى أكثر قدما من حضارة غرب أوروبا ، ويفيىض فى دراسة العلاقات بين هذه الحضارات الخمس (٤) .

٥ - تسير هذه الدراسة وفقا لمفاهيم يحددها الكاتب هى :

(أ) فكرة البنوة والأبوة : المتمثلة فى العلاقة بين مجتمع غرب أوروبا والمجتمع الهلنى ، فلقد اشتق الأوريون كيانهم التاريخى من المجتمع الهلنى . غير أن هنالك بعض المجتمعات التى لا تنتمى « بالبنوة » الى مجتمع آخر ، ويطلق الكاتب على هذه المجتمعات اسم « مجتمعات ملكيصادق » . كما أن هنالك

(٢) Ibid., p. 35 : « Fossilised relics of similar societies now extinct ... ».

(٣) Ibid., p. 56 : « For the advancement of historical knowledge, it seems desirable that our historians should distinguish the **Parochial** relations between states within societies from the **œcumenical** relations between the societies themselves ».

(٤) Ibid., p. 43 : « in the process of tracing the history of our Western Society backward towards its origins, we strike upon the last phase of another society of the same kind, the origins of which evidently lie considerably farther back in the past » .

بعض المجتمعات التي لا تجد من يأخذها « كآب » (٥) .

(ب) فكره « المدنية » المقابلة « للبداية » : فالمجتمع اما بدائى أو متمدن . وغالبية المجتمعات بدائية ، وهى صغيرة المساحة جغرافيا ، قليلة السكان ، قصيرة الأجل ، تلقى نهايتها غالبا بطريقة عنيفة على يد مجتمع متمدن أو متبربر . أما « المدنيات » فهى أقل عددا من « البدائيات » ولكنها أوسع مساحة ، وتنبنى الوحدة فيها لا على الفرد وانما على الطبقة (٦) .

(ج) فكرة « أوقات الاضطراب » (Interregnum) وهى الفترة الفوضوية التى تأتى بين تآكل أحد المجتمعات وقيام مجتمع آخر وفق مفهوم « البنوة » . ومن أبرز الأمثلة على هذا فترة العصور الوسطى « المظلمة » التى تقع بين وفاة الهلينية وقيام مجتمع غرب أوروبا المسيحى ، وهى الفترة التى بلغ فيها العجز فى العالم الهليني مداه . فلما أن زحفت جحافل البرابرة على هذا العالم وجدوه جثة هامدة تماما ، فأخذوا فى نهش تلك الجثة كما تفعل السمقور مع الجثث . ويصور الكاتب هذا

(٥) Ibid., p. 44 : « The chapters in the history of one and the same society resemble the successive experiences of a single person ; the «affiliations» and «apparentations» between one society and another resemble the relations between parent and child ».

(٦) Ibid., p. 148 : « We can at once remark a specific difference of a purely quantitative kind. The number of known civilizations is small. In a survey of human societies in all parts of the world in every age from the present to the remotest past on which our modern Western Archaeology yet throws any light, we have succeeded in collecting only twenty-one specimens of civilizations, and we have been compelled to concede that no less than ten of these twenty-one may possibly turn out not to be distinct and separate specimens in their own right. The number of known primitive societies is vastly greater. In 1915 three Western anthropologists srew up a list of about 650 societies ».

الموقف بالآتى : « لم يكن البرابرة الذين ساقتهم الى
الامبراطورية الرومانية ربح » تحركات الشعوب » هم الذين
كتبوا بداية حياتنا الدينية • بل انهم لم يقوموا حتى بدور
ذكور النحل التى لا يسمح لها بالاقتراب من الخلية بعد أن
يقوموا بوظيفتهم الوحيدة ألا وهى اخصاب ملكة النحل، ذلك
لأن الكنيسة كانت بالفعل قد حملت منذ زمن ، وكان الجنين
قد اكتمل عندما التقت الكنيسة بالبرابرة • كما أن القضاء
على تلك الغزوات المتبريرة الذى تم فيما بعد لا صلة له بمولد
المجتمع الغربى • ان الذى جعل تحركات البرابرة شيئا
محسوسا هو أنهم كانوا على مقربة من المسرح وقت وفاة
الحضارة الهلينية • ولكن لا يمكن أن يزعموا لانفسهم بأنهم
قد كالوا للهلينية حتى الضربة الأخيرة ، لأنه فى الوقت الذى
كان هؤلاء البرابرة يجتاحون الامبراطورية الرومانية ، كان
المجتمع الهلنى يلفظ أنفاسه الاخيرة ، وكان المنتحريموت من
الجروح العميقة التى أصاب بها نفسه فى أوقات المتاعب لقرون
خلت • وعلى هذا فان البرابرة ما كانوا أبدا قتلة ذلك الميت
« العظيم » ، وانما اقتصر دورهم على القيام بدور النسور
التى نهشت الجيفة ، لا بل كانوا كالديدان التى كانت تتغذى
على هذا العفن • ان ظروف التدهور فى المجتمع الهلنى التى

أتت بالبرابرة على مسرح الأحداث هي التي حددت مدة وجودهم في مرحلة عابرة من الانحلال والتآكل ، لأن هذه الفترة الانتقالية بفسادها وتآكلها هي البيئة الوحيدة التي كان يمكننا لأمثال البرابرة أن يعيشوا فيها وإبانها (٧) » .

(د) فكرة البروليتاريا الداخلية ، وهي مجموعة الأفراد داخل المجتمع الذين لا يدينون لهذا المجتمع بشيء سوى وجودهم الفيزيقي . وقد يقدر لهذه المجموعة من البروليتاريا أن تصبح العامل المهيمن على هذا المجتمع الذي تنتمي إليه عن طريق « البنية » : مثال ذلك الجماعة المسيحية التي ظهرت في وسط المجتمع الهليني وقت أفول شمس الهلينية . فلما أن فقد ملح الهلينية مذاقه ولم يعد يملح ، لم تعد الهلينية بقادرة على أداء وظيفتها الأبوية التي كانت تضطلع بها منذ زمن بعيد كمعلم للبشرية . وتدهورت الأحوال حتى لم تعد الهلينية سوى « أقلية متسودة » تضغط على البروليتاريا في عالمها السفلي ،

(٧) Ibid., pp. 61-62 : « In reality, the Barbarians who were deposited in the Roman Empire by the Volkerwanderung were not the authors of our spiritual being. They were not even drones who were no longer permitted to cumber the hive after they had performed their sole function of fertilising the queen-bee ; for the Church was already great with child when she encountered them, and the subsequent extirpation of the Barbarians had nothing to do with the genesis of our Western Society. The Barbarians made their Passage felt by being in at the death of the Hellenic Society ; but they cannot even claim the distinction of having delivered the death blow, for by the time when they overran the Roman Empire, the Hellenic Society was already moribund - a suicide slowly dying of wounds self-inflicted during a « Time of Troubles » centuries before. Thus the Barbarians were not the assassins of the mighty dead. They were merely the vultures feeding on the carrion or the maggots crawling in the carcass. And the very process of dissolution which had brought them on to the scene determined the duration of their existence ; since this transitory interregnum of corruption and decay was the only environment in which they were able to thrive ... » .

ولم تعد الأخيرة طيعة بعد • والبروليتاريا الداخلية ففى حالة الهلينية هى الكنيسة المسيحية التى جعلت تتكون من تحت الأرض حتى قدر لها أن تبتلع الإمبراطورية كلها • وأصل هذه الكنيسة التى انتصرت على الهلينية وامبراطوريتها نفر من المبشرين الوافدين من المشرق ومن جماعة العبيد وصيادى السمك وهم من بين الجماعات التى كان الاسكندر المقدونى قد أخضعها لسلطان الهلينية (أ) •

(هـ) فكرة البروليتاريا الخارجية، ومن قبيلها حركة هجرات الشعوب المتبربرة التى كانت تهيم على وجهها وقت احتضار الحضارة الهلينية • ان القبائل الجرمانية والسلافية والسرمانية والهونية هى البروليتاريا الخارجية التى كانت خاضعة لسلطان الحضارة الهلينية الرومانية، ثم تحركت فوصلت وقت وفاة الحضارة الهلينية، ثم أقامت لنفسها ممالك على نفس التربة الهلينية، ويحلوا لأصحاب هذه الدويلات المتبربرة أن يطلقوا عليها « عصر البطولة » •

ان البروليتاريا الخارجية والبروليتاريا الداخلية تتضافران فى

(أ) Ibid., pp. 53-57 : « When the salt of the Hellenic tradition had lost its savour, so that « the heirs of the Kingdom of Hellenism » had ceased to perform their fathers' function as pioneers in one of the great experiences of Humanity and had generated into a « dominant minority », holding down by might and main a proletarian underworld which no longer voluntarily followed their lead, The Roman « Universal State » incorporated in itself the whole of the disintegrating Hellenic Society — « the dominant minority » which was maintaining itself on the surface, « the internal proletariat » which was pressing up from below The « Catholic Church » in its first phase conformed to the pattern of the Roman political universe by incorporating into itself the whole of the « internal proletariat » ... The Church's hold over the affections and the allegiance of the « Internal Proletariat » was far greater than the Empire's hold over either portion of the proletarian underworld ».

الاجهاز على المجتمع الأب الذى كان يسيطر عليها ، وذلك
لكى تحلا محله (٩) .

(و) فكرة الدولة العالمية والكنيسة العالمية ، بمفهوم المؤسسات
التي تضم بين جنباتها كل مناحى الحياة السياسية والدينية
للمجتمع الذى تقوم فيه هذه المؤسسات

(ز) فكرة المجتمعات التي كانت متمدينة على زمانها ثم بادت أو
تجبرت : من قبيل ذلك الحضارة السومرية والمينوية
والحيثية والبابلية والاندiane والمكسيكية والمصرية (١١) .
ويطلق الكاتب على هذه الحضارات البائدة جميعا لفظة
(Fossils) . ويرى توينبى في الحضارة المصرية أم الحضارات
التي عاشت ردها من الزمن أطول من عمر أية حضارة أخرى

Ibid., p. 58 : « A third phenomenon which is associated with the Apparentation-and-Affiliation of the Hellenic and the Western Society is the Volkerwanderung in which « the external proletariat » of the Hellenic Society came down in spate from the nc-man's - land beyond the frontiers of the Roman Empire - Germans and Slavs from the forests of Northern-Europe, Sarmatians and Hunds from the Eurasian Steppe The ephemeral « Successor-States » which were set up on the former territories of the Roman Empire by these barbarian war-bands shared the stage of history with the Church during the interregnum between the disappearance of the Hellenic Society and the emergence of our Western Society - an interregnum which was the barbarians' « heroic age » . (٩)

Ibid., p. 62 : « The evidential Value of « Universal Churches » is absolute, because churches belong by nature to the future as well as to the past. The evidential Value of « Universal States » and « Volkerwanderungen » is conditional » . (١٠)

Ibid., pp. 90 Seq : «The information which we now have obtained (١١) by investigating the « affiliations » of all the living societies will enable us at once to identify the extinct Societies which are represented to-day by certain fossils ». Minoan, p. 92 ; Sumeric, p. 104 ; Babylonian, p. 115 ; Andean, p. 119 ; Yucatec, Mexic and Mayan, p. 123 ; Egyptiac, p. 128.

عرفها التاريخ ، فقد امتدت من الألف الرابع قبل الميلاد حتى القرن الخامس للميلاد ، وعلى هذا فإن مسافتها تبلغ ثلاثة أمثال مسافة الحضارة الغربية حتى يومنا هذا . وهى فوق هذا حضارة مقدر لها الخلود ، ولا يوجد عقل بشرى يستطيع أن يدرك أبعادها وأسرارها الدفينة ، وهى التى يحق لهرمها الأكبر أن يقول : « قبل أن يكون ابراهيم أنا ذائن (١٢) » .

ثم ينتقل توينبى الى الدراسة المقارنة للحضارات فى مراحل مولدها فنموها ثم سقوطها . وفى مولد أو تكوين (genesis) الحضارة يؤمن الكاتب بقانون « التحدى والاستجابة » (Challenge and Response) وهو يرفض رأى الشائع بأن الحضارة تولد فى البيئات التى تتيسر فيها ظروف المعيشة للانسان ، ويرى أن مولد الحضارة عملية خلق تتضمن تغيرات حتى فى عوامل الزمن نفسه . ويضرب لنا مثالا على هذا بأن رأى السائد منذ القدم أن الحضارة قد نشأت أول ما نشأت فى مصر بسبب

Ibid., pp. 128-129 : « Finally there is one representative of the species (١٢) which have lived through a longer span than any other whose history we know, and this, apparently, without ever entering into the relationship either of " affiliation " or of " apparentation " . This is the society which emerged in the lower Valley of the Nile, between the First Cataract and the Mediterranean, during the fourth millennium B.C., and which became extinct in the fifth Century of the Christian Era after existing, from first to last, at least three times as long as our own Western Society has existed so far All the more triumphant is the immortality which it has sought and found in stone. It seems probable that the Pyramids, which have already borne inanimate witness to the existence of their makers for four or five thousand years without yielding to the ravages of Time, will continue steadfastly to perform their Atlantean task for hundreds of thousands of years to come. It is not inconceivable that they may outlast Mankind itself, and that, in a world where there are no longer human senses to receive their testimony or human minds to comprehend it, they will testify still of the Egyptian Society that made them : « Before Abraham was, I am ».

خصوبة أرضها ووفرة مياه نيلها ، ولما وصف الكتاب الاغريق أرض مصر وصفوها على أنها « هبة النيل » . غير أن الأبحاث العلمية الجادة تشير الى أن هذا القول ينطوى على خطأ كبير ، ذلك لأن حضارة مصر الزراعية ليست هبة من النيل بقدر ما هي حصيلة جهود الانسان المصرى الذى أقام الجسور وروض النيل وحطم الأهرام وأقام المقاييس ورصد النجوم وتوصل الى حسابات السنة الشمسية وتقاويمها ، أى أن الانسان المصرى هو الذى سيطر على الطبيعة وأخضعها لخدمة الأغراض الانسانية (١٣) ويضرب الكاتب أمثلة عديدة لتوضيح جهود الانسان البطولية فى صراعه مع الطبيعة وتحدياتها فى أواسط أمريكا وفى سيلان وشمالي الجزيرة العربية وفى نيو انجلند والكيبانا الايطالية وكابوا . ويستخلص من هذه الدراسات المتتابة أن « اليسر هو عدو الحضارة » (١٤) ، بمعنى أن الظروف الطبيعية الميسرة ليست هى التى تولد الحضارة وتفجر التقدم ، وانما العكس هو الصحيح بمعنى أن الظروف الطبيعية القاسية وتحدياتها هى التى تحفز الانسان على العمل والخلق . وإلى جانب الظروف الطبيعية القاسية يساعد انتقال الحضارة من موطنها الأصيل الى أرض جديدة على التقدم ، ويطلق الكاتب على هذا العامل « حافز الأرض الجديدة » (Stimulus of New Ground) . ويضرب الكاتب أمثلة على ذلك بالحضارة البابلية التى اكتمل كيانها فى آشور ، وبالحضارة الايرانية التى اكتملت فى الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى ، وبالحضارة البيزنطية التى ازدهرت عندما انتقلت الى روسيا والبلقان . وهناك حافز آخر يساعد على تقدم الحضارة وهو ما يسميه الكاتب باسم « حافز الضربات المفاجئة » (Stimulus of Blows) ، فالدول التى تجتاحها جيوش الامبراطوريات

Toynbee, A., Op. Cit., Vol. II, p. 2 : « The agricultural Egypt of (١٣) modern times is as much a gift of Man as it is of the Nile ».

Ibid., p. 31 : « We have now perhaps established decisively the truth (١٤) that ease is inimical to civilization ».

القوية ، سرعان ما تفيق من هول الكارثة وتعمل على بناء نفسها من جديد للارتقاء بمستواها لكي تتمكن من مواجهة تحديات المستقبل بجهد بطولي خارق . من قبيل ذلك في التاريخ القديم ما حل بروما على يد قبائل الغال، ثم استيعابها للدرس عندما أعدت العدة وخاضت الحرب ضد الحلف السامني ثم فرضت سيادتها على ايطاليا كلها . ولدينا مثل آخر فيما أصاب العثمانيين على يد تيمورلنك في واقعة أنجورة ، ولكن العثمانيين وجدوا في هذه الضربة المفاجئة حافزا لهم ليقوموا من هذه الكبوة فيحققوا مكاسب مذهلة ، فبعد نصف قرن من هذه الكارثة تمكن محمد الفاتح من دخول القسطنطينية ظافرا (١٤٥٣ م) .

وهناك حافز آخر يولد شرارة الحضارة هو حافز « الضغوط الخارجية » (Stimulus of Pressures) : : مثال ذلك الحضارة السومرية ، فلقد قامت حضارة سومر وأكاد على يد أسرة سومرية مقرها بلدة أور (Ur) في قلب الحضارة السومرية . ثم أعيد بناء هذه الامبراطورية بعد فترة التدهور على يد العموريين في عاصمتهم بابل « بوابة الآلهة » ، وهي نفس البوابة التي شهدت ضغوط البدو العموريين من استبس شمالى الجزيرة العربية الى أرض شنعار (بلاد ما بين النهرين) . وهذا يدل على أن القوة السياسية قد انتقلت في اطار الدولة السومرية من الداخل الى تلك البقعة التي كانت معرضة للضغوط الخارجية (١٥) .

وهناك أيضا حافز « القصاص » (Penalization) الذى يولد بدوره شرارة الحضارة ، بمعنى أن الجماعة التى تتعرض للعقاب أو القصاص من جانب جماعة أخرى متسودة ، تحاول التعويض عما أصابها من خطر بابتكار أساليب جديدة لفرض وجودها وإثبات كيانها ، تماما مثلما يحدث فى حالة الانسان الفرد الضير الذى يجاهد حتى ينجح فى تعويض النقص الذى يعانى به بتنمية حواس أخرى كاللمس والشم والسمع .

(١٥) Ibid., p. 133 : " Thus, in the Sumeric Universal State, political power passed from the interior to the march on which the heaviest external pressure was being exerted ».

ومن الأمثلة على ذلك ما حدث عندما اضطهد الرومان الجماعة المسيحية
الباكرة من العبيد وفقراء القوم ، فلقد سعى هؤلاء المضطهدون الى
التماسك والتسلح بقوة الإيمان حتى قدر لهم في نهاية الأمر أن ينتصروا
عندما أصبحت دياتهم هي الديانة الرسمية للامبراطورية كلها : « ان قمع
العبادة المسيحية على السطح في روما الوثنية هو الذي دفع المسيحيين الى
أن يخلقوا روما مسيحية في الكهوف تحت سطح الكمبانا (بايطاليا) ،
ونجحت المدينة السفلية في أن تغلب على مدينة السطح ، مدينة التلال
السبعة (١٦) » .

ان الرأي عند توينبي أنه كلما ازداد التحدي تصاعدت قوة
الاستجابة حتى تصل بأصحابها الى ما يسميه باسم « الوسيلة الذهبية »
(Golden Mean) : فالفئات المضطهدة في أوروبا من أتباع
البروتستانتية والبرستارية ، عندما ازداد ضغط الكاثوليك عليهم هاجروا
من أوروبا الى العالم الجديد حيث أقاموا لهم « جنة جديدة » هنالك .
وقد عبر عن مشاعر هذه الجماعة المهاجرة شاعر من القرن السابع عشر في
الآتي : مبينا ابتهاجهم بالابحار وراء البحار الى آفاق جديدة تحدوهم
يد السماء الى بر الأمان ، بعيداً عن العاصفة المجنونة وتغنت رجال الدين
المتعصبين (١٧) .

Ibid., pp. 209-210 : « The prohibition of Christian worship on the (١٦)
surface of pagan Rome stimulated the Christians to create for them-
selves a new Christian Rome in the Catacombs below the surface of
the Campagna ; and the city of the Catacombs eventually triumphed
over the City of the Seven Hills ».

“ The listening winds receive this song : (١٧)
« What should we do but sing His praise
That led us through the watery maze
Unto an isle so long unknown
And yet far kinder than our own ?
Where He the huge-sea monsters wracks
That lift the deep upon their backs
He lands us on a grassy stage,
Safe from the storm's and pretate's rage ”.

وهناك مثل آخر يتضح من تحديات الحضارة الهلينية للحضارة السومرية ، فأمام اشتداد موجات التحدي المتمثلة في موابك غزو الاسكندر الأكبر والقياصرة الرومان من بعده ، أخذت الاستجابات تعبر عن نفسها الواحدة بعد الأخرى في شكل الزرادشتية الفارسية ثم المذاهب المسيحية « المهرطقة » من نسطورية (أتباع نسطور) ومونوفيزية (مبدأ الطبيعة الواحدة) ، ولكنها جميعا لم توفق لأن استجاباتها كانت من صنف تحدياتها ، حتى جاء الاسلام وانتصر على هذا التحدي الهليني وأعطى الشام « حضارة عالمية » في شكل الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية من بعدها ، وانهار الكيان الهليني (البيزنطي آنذاك) أمام تلك القوة الفتية : « ان هرقل نفسه (القرن ٧ م) الذي قضى حياته في تأكيد منجزات الاسكندر وبومبي قد قدر له أن يعيش ليشهد بنفسه الخليفة عمر بن الخطاب يتقدم على دول القياصرة ليغير ما فعله الاسكندر وبومبي وهرقل نفسه تغيرا كان هذه المرة كاملا والى الابد (١٨) » .

ينتقل الكاتب بعد هذا الى مرحلة « نمو الحضارات » : فبعد مولد الحضارة تتوقع لها أن تنتقل الى طور النمو . غير أن بعض الحضارات لا يتأتى لها طور للنمو الكامل فيكتب عليها التجمد لتصبح « حضارات أسيرة » (Arrested Civilizations) : ومن أمثلة هذه الحضارات البولونيزية والاسكيماو والبدو والاسبرطيين . لقد قامت هذه الحضارات نتيجة لقانون التحدي والاستجابة ، ولكنها تجمدت في استجاباتها لأنها ظلت على ما هي عليه دون محاولة لاستخدام الحكمة في استغلال ظروف التحدي . ولناخذ الاسبرطيين هنا مثلا : لقد نجح الاسبرطيون في السيطرة

(١٨) Ibid., p. 287 : « The Emperor Heraclius himself, who had spent his life in vindicating the work of Alexander and Pompey, was condemned by a malicious Destiny not to taste of death until he had seen " Umar the Successor of Muhammad the Prophet coming into his Kingdom to undo Alexander's work and Pompey's work and Heraclius's own work - and this utterly and for ever ».

على خمسى شبه جزيرة البلوبونيز ، ولكنهم تباعدوا فى نظمهم عن بقية العالم الهلينى بنظامه المعروف فى شكل دويلة - المدينة . ففى القرن الثامن ق.م. كان على دويلات المدن الاغريقية أن تبحث لسكانها عن مستعمرات لتواجه بها احتياجات السكان . ولكن اسبرطة تقاعست ولم تحقق لنفسها مستعمرات كبقية جاراتها الهلنيات ، اللهم الا مستعمرة تارتتوم . ولما أن ضغطت زيادة السكان على اسبرطة ، لم تفكر فى حل مشكلاتها بالاتجاه الى ما وراء البحار مثلما فعلت زميلاتها الهلنيات ، وانما راحت تتسلل عبر الممرات الجبلية وتقوم بغزو جاراتها الصغيرات وأولى ضحاياها كانت مسينا (٧٣٦ - ٧٢٠ ق.م.) . ولكن المسيينين سرعان ما هبوا يدافعون عن كيانهم ، ولكن اسبرطة قمعتهم فى قسوة بالغة . وتجددت المقاومة بعد ذلك ودارت الحرب الثانية بين المعسكرين ، وسقطت مسينا ثم وزعت أرضها على الاسبرطيين ، وصار أهلها عبيدا للأرض ، بينما تفرغ الاسبرطيون للحياة العسكرية الصارمة وفقا للنظم التى سنّها لهم زعيمهم ليكرغوس (٥٥٠ ق.م.) . ووفقا لهذه القوانين انصرف هم الاسبرطيين كلية الى تخريج جماعات المحاربين من طبقة « النظراء » من المعسكرات . وهذه الطبقة لا تعتمد على أصول المولد أو الميراث وانما تقوم على صلاحية التفوق العسكرى فحسب . ان القانون الاسبرطى يمثل تعاميا شديدا لقانون الطبيعة البشرية ، فهو يفوض الدولة فى اختيار الزوجات للشباب الاسبرطى ، بهدف الحفاظ على نقاوة الجنس المتمرس فى العسكرية الخشنة . وكانت الدولة تأخذ الأطفال الاسبرطيين وترسل بهم الى « طواحين الدراسة » فى سن السابعة . ولم تستثن الفتيات من دخول هذه المعسكرات ، بل كان عليهن أيضا التسابق فى ميادين الرياضة وساحات التدريب على الحرب وهن عاريات تماما أمام الجمهور (١٩) .

Toynbee, A., Op. Cit., Vol. III, p. 59 : « Spartan girls, like Spartan boys, were trained on a competitive system in athletics ; and girls, like boys, competed naked in public before a male audience ».

كان النظام الاسبرطى يهدف الى تحقيق تفوق كمى ونوعى فى آن واحد لقلّة عسكرية تتحكم فى السواد الأعظم من الشعب الاسبرطى ، وكان السلاح أو الحافز الاسبرطى الأوحد فى تحقيق أهدافه هو «العقاب» الصارم . ولكى يحقق الاسبرطيون هدفهم الكمى أعفوا ولى الأمر لثلاثة من الأبناء من التعبئة وقت الحرب ، وأسقطوا عن ولى الأمر لأربعة أبناء كل الالتزامات نحو الدولة . وفى مجال الهدف النوعى كان المجتمع الاسبرطى لا يتحرج ، بل انه كان يشجع ويبارك اقدام زوج ما على تحسين نسله بأن يستضيف شابا عرف بفتوته وقوة بنيته لكى تحمل زوجته منه ابنا . ويطلق الكاتب على هذا الشاب المستضاف لفظة « الحيوان الآدمى » (٢٠) . ويبدو أنه كان للزوجة الاسبرطية أن تلجأ الى هذا الأسلوب ان هى شعرت أن رجلها لم يعد نداءً لتلك المهمة « القومية » الكبرى . كذلك كان من بين دعائم النظام الاسبرطى أن يقوم الفتيّة الأكبر سنا بالاشراف على تدريب الأصغر سنا ، حتى يصل الفتى الى سن العشرين حيث يكون عليه أن يجتاز الامتحان الصعب بنجاح فينضم الى طبقة « النظراء » أو « الأنداد » . ويظل الواحد منهم فى الخدمة العسكرية حتى يبلغ الأربعين ، وهو دواما عرضة للعزل ان حامت حوله شبهة الجبن فى الحرب .

Ibid., p. 60 : « A Spartan husband won popular approval, instead of exposing himself to public condemnation, if he took pains to improve the quality of his wife's progeny by arranging that her children should be gotten upon her by a sire who was a better man - or human animal - than her husband himself ». See Plutarch, Life of Lucurgus, ch.XV : « The Spartan Social reformer saw nothing but Vulgarly and vanity in the sexual conventions of the rest of Mankind, who took care to serve their bitches and their mares with the best Sires that they can manage to borrow or hire, yet lock their women up and keep them under watch and ward in order to make sure that they shall bear children exclusively to their husbands — as though this were a husband's sacred right even if he happens to be pebble-minded or senile or diseased” .

ويرى توينبى شبحاً كبيراً بين هذا النظام الاسبرطى وبين نظام الانكشارية عند العثمانيين ، فكلاهما يستند الى أسس واحدة هي : الاشراف ، والانتقاء ، والتخصص ، والمنافسة ، والحوافز السلبية المتمثلة فى العقاب والردع ، والحوافز الايجابية المتمثلة فى الثواب . وقد غلبت الروح العسكرية على أفراد هذه الطبقة الى حد أنه لم يكن يسمح للواحد منها بالنوم فى بيت الزوجية حتى فى ليلة الزفاف ، ولم يكن يجرؤ على تناول طعام الغداء مع زوجته ، لأن داره وهمه الأكبر هو المعسكر .

لقد رأى الآثينيون فى هذا النظام الاسبرطى قسوة بالغة ومجافاة للطبيعة الآدمية للانسان الفرد . ان القانون الليكورغى يمثل حكماً مضاداً للطبيعة ، وقد ظل يتحدى نواميس الطبائع الانسانية لمدة مائتى عام . لقد كان الشعار الاسبرطى ، كما جاء على لسان واحد منهم هو (داماراتوس) فى حديثه الى (اكزركسيز) الفارسى يوم واقعة (ثرموبولاي) ، « الموت أو النصر » . ويستدل أيضاً على تمسك الاسبرطيين بهذا الشعار من رواية هيرودوت عن بطولة ليونيداس ورجاله الثلاثمائة فى يوم ثرموبولاي ، ومن قصة ذلك الطفل الاسبرطى الذى لجأ الى اخفاء ثعلب صغير تحت ملابسه خوفاً من قاداته فى المعسكر ، وجعل يتحمل تقطيع الثعلب لاحشائه دون أن يصرح بألمه ، خوفاً من وصمة الجبن . يضاف الى كل هذا أن الفتى الاسبرطى كان يمضى العامين السابقين على تخرجه من المعسكر فيما عرف « بالخدمه السرية » ، ألا وهى قيامه بالتجسس على طبقة انهيلوت من رقيق الأرض لكى يقبض على من يتكاسل منهم فى العمل ويقطع رأسه . وقد كان من مدعاة الفخر لدى أفراد طبقة « النظراء » أن يدوسوا بأقدامهم على أعناق العبيد ورقيق الأرض وففراء المجتمع . ولذا فإن هذه الطبقات من « الأذنياء » كانت تحلم باليوم الذى تتمكن فيه من

الاتقضاض على هذه القلة العسكرية المتسلطة لتأكل لحم أفرادها أحياء (٢١).

إن مجتمعا كهذا المجتمع لا يكاد يعرف شيئا عن أية اهتمامات انسانية كالفن والموسيقى والفلسفة ، وانما كان هدفه الأوحد تصميم تلك القوالب الفولاذية لصب الأفراد فيها ودمغها بمس أفران الحديد والنار . ألم يحرم الاسبرطيون على شبابهم المشاركة في الدورات الاولمبية؟ نعم ، لقد تمكنت اسبرطة من الحفاظ على كيائها حتى القرن السادس ق.م ، ولكن المتغيرات الكبرى التي حلت في القرن السادس في مصر وفارس وفينيقيا واثروسكيا ، حتمت على دويلات المدن الهلينية أن تطور من أساليبها ونظم حياتها لمواجهة التحديات الجديدة : فاتجهت بعضها الى التجارة الخارجية أو الى الصناعة ، وكانت آثينا في مقدمة الدويلات التي أجرت تطورا لدراساتها ونظمها الاجتماعية . ولكن اسبرطة تحجرت على نظامها العتيق الذي كان قد أرساه لهم ليكرغوس ، ولم يبد الاسبرطيون حراكا في أى اتجاه آخر يواكب روح العصر . وكان على اسبرطة أن تواجه العالم الهليني جميعا وهو يتحداها ويتحدى جمودها . ودارت حروب البلوبونيز بين اسبرطة وآثينا . حقيقة ان اسبرطة قد خرجت ظافرة على آثينا في حرب ٤٣٨ - ٤٠٤ ق.م ، ولكن النتيجة الحقيقية للحرب كانت شيئا آخر عبر عنه اجيس (Agis) ملك اسبرطة في قوله : « ان هذه هى بداية الشرور لكل بلاد هلاس » . وبالفعل فان الوقت الذي أطاح فيه الاسبرطيون بالآثينيين يوافق نفس الوقت الذي بدأت فيه الامراض

(٢١) Ibid., p. 66 : « While Sparta demanded, and duly evoked, the manly heroism of a Leonidas and his Three Hundred in order to cover the Spartan name with incomparable military glory, she equally demanded — and did not fail to evoke — the juvenile criminality of her Secret Service in order that the tiny minority of Spartiate «peers» might keep their feet on the necks of a numerically overwhelming majority of « Inferiors » and « Dependants » and « New Members » and « Serfs » who would have been delighted, if ever they had the chance, « to eat » their handful of masters « alive » ».

الاجتماعية تظهر خبث دائها فى جسم اسبرطة • وقدر لنظام ليكرغوس أن ينتحر فقتل نفسه بنفسه • لقد ظل الاسبرطيون يعيشون على أحلام القديم ، وزحفت الجحافل المقدونية والرومانية من بعدها لتحطم ما قد تبقى من كيان اسبرطى • ان الاسبرطيين - والحال هذه - « شعب بلا تاريخ » •

بعد هذا يمضى توينبى لشرح معايير النمو : فالنمو ينبغى أن يكون من خلال مسير يمضى بالمجتمع من تحد الى استجابة ثم الى تحديات جديدة واستجابات لهذا الجديد • ومن أبرز معايير النمو الحضارى ازدياد سيطرة الانسان على البيئة التى تحيط به بظروفها الطبيعية المختلفة ، ثم تطوير أسلوب معالجته لتلك الظروف حتى تكون صنوف الاستجابة نجاحا مقابل صنوف التحديات بالنجاح أيضا • وهذا النجاح المتولد بين كل تحد واستجابة هو التقدم الحضارى ، بمعنى أنه المحك الأمثل الذى يجعل من أية حضارة نامية صاحبة الإرادة فى تقرير مصيرها وذلك عندما يتأتى لها الاستيعاب لبيئتها وعناصر تحدياتها وحقل صراعاتها (٢٢) •

كما أن النمو الحضارى يتأتى على يد أفراد خلاقين أو على يد أقليات مبتكرة ، فهم التى تحدد نوعية الاستجابة الناجحة للتحديات ، لتمضى بالمجتمع قدما ، تجر من ورائها تلك الأغلبية الكسولة « غير الخلاقة » • إن النمو الحضارى هو دينامية الحياة ، وهى من فعل الأقلية النشطة ، أما بقية أفراد المجتمع من الخاملين فهم شركاء الملايين من أهل «الكهف» فى كل أركان الأرض • ويجاهد الخلاقون لكى يجذبوا من ورائهم

(٢٢) Ibid., p. 216 : « Growth means that the growing personality of civilization tends to become its own environment and its own challenger and its own field of action ».

هؤلاء الكسالى لكى يلحق المجتمع بالموكب الحى (٢٣) •

ويفرد توينبى مكانا رحبا لبعض الأفراد الذين قادوا تلك القلة المجاهدة على درب التقدم ، الذين اضطر كل فرد منهم فى بداية الأمر الى الإنسحاب ثم عاد على المسرح من جديد يعلن الثورة للأخذ بيد الجماعة نحو الأمام • ومن بين هؤلاء العمالقة : القديس بولس ، القديس بندكت ، بوذا ، النبى داود ، صولون الآثينى ، يوليوس قيصر ، ليوقورث ، بطرس الأكبر الروسى ، لينين ، غاريبالدى ، هندنبرج البروسى وغيرهم كثيرون •

ثم ينتقل الكاتب الى مرحلة تدهور الحضارات وانهارها :

وهى مرحلة تبدو أكثر وضوحا من سابقةها مرحلة النمو ، وهى فى هذا الوضوح جلية مثل مرحلة التكوين • فمن بين الـ ٢٦ حضارة السالفة الذكر قبض على نمو خمس منها ، وأجهضت أربع آخر • كما أن ١٦ من هذه الحضارات قد توفيت ودفنت ، ولم يبق منها سوى عشر وهى : الحضارة الغربية (الأوربية) ، الحضارة الأرثوذكسية الشرقية ، الحضارة الأرثوذكسية الروسية ، الحضارة الإسلامية ، الحضارة الهندية ، حضارة الشرق الأقصى (الصين) ، الحضارة اليابانية ، الحضارة البولونيزية ، حضارة الاسكيمو ، حضارة البدر الرحل • وتبدو البولونيزية والبدوية اليوم فى مرحلة الاحتضار ، كما أن سبعا من الثمان الباقيات تتعرض أحيانا لخطر الابداء وأخرى لخطر الامتصاص على يد الحضارة الغربية • وأوضح علامات التآكل والتصدع فى هذه الحضارات ظاهرة جمع شتات حضارة ما منها فى اطار وحدة سياسية قهرية فى شكل « دولة عالمية » ، وقد جرت محاولات مماثلة بين موسكو ونوفجورد ، وفى الدولة العثمانية،

(٢٣) Ibid., pp. 242-243 : « In every growing civilization, even at the times when it is growing the most lustily, the great majority of the participant individuals are in the same stagnant quiescent condition as the members of a primitive society which is in a state of rest ».

وفي امبراطورية تيمورلنك • ويرى الكاتب في « الدولة العالمية » علامة على طريق التدهور والانحيار ، وهذا الانحيار ليس من فعل تحديات حضارة أخرى قوية بقدر ما هو نتيجة للتصدع والافلاس من الداخل (٢٤)

ويرى توينبي أن الحضارة الغربية لم تصل بعد الى مرحلة « الدولة العالمية » ، وانما هي تمر حاليا بفترة « الاضطرابات » • وهذه الاضطرابات وليدة عامل انتحاري هو توسع الغرب في حركة الاستعمار على وجه المسكونة دون حساب على تربة حضارات مائتة أو متهالكة (٢٥)

ان التدهور هو محصلة الفشل في محاولة العلو بالانسان من درك الحيوان الى مستوى آدمي شبيه بتلك الشركة المأثورة عن « مجتمع القديسين » (٢٦) • وهذا الفشل هو فقدان القدرة على الخلق وافلاس القادة ، وذبول القوة الدافعة عند الجماهير : « فحيث لا خلق ، ينتفى التماثل » (٢٧) • ويأتى تمزق المجتمع دواما من الداخل ، عندما تشعر البروليتاريا الداخلية بأن السحر البراق الذي كان في أيدي قادتهم قد علاه الصدا ولم يعد يفيد • والتصدع لا يأتى من الخارج على يد حضارة أجنبية فتية ، وينحصر ما تقوم به تلك الحضارة الفتية القوية في توجيه

Toynbee, A., Op. Cit., Vol. IV, pp. 2-3 : « One of the most conspicuous of the marks of disintegrations is a phenomenon of the last stage but one in a decline and fall, when a disintegrating Civilization purchases a reprieve by submitting to a forcible political unification within the framework of a « Universal State » ».

Ibid., p. 4 : « Mortality, behold and fear ! (٢٥)
What a change of flesh is here ! ».

Ibid., p. 5 : « The breakdowns are failures in an audacious attempt (٢٦)
to ascend from the level of a Primitive Humanity, living the life of a social animal, to the height of some superhuman kind of being in a Communion of Saints ».

Ibid., loc. cit., : « Where there is no creation, there is also no (٢٧)
mimesis ».

ضربة لكيان قد اتحر بالفعل . « ان أكبر عدو للانسان هو الانسان ذاته (٢٨) » .

وعلى هذا فإن السبب الأول في انهيار الحضارة هو فقدان الانسجام بين عناصر مكوناتها ، مما يتأتى عليه فقدان المقدرة على تقرير المصير (٢٩) . ومن دواعي هذا الانسجام ظهور تيارات اجتماعية جديدة ثم دخولها الى حياة مجتمع ما ، ثم محاولة اقحام هذا الجديد بعلاته على نظام لم يكن أصلا ليستوعب هذا الجديد ، ولا هو يتسع له . وهذا شيء « بالنبذ الجديد في القنائن العتيقة (٣٠) » . ولكيلا تتحطم « القنائن العتيقة » ينبغي عند ادخال قوى دينامية جديدة أو مؤثرات خلاقة أن يصاحب ذلك وفي نفس الوقت اعادة بناء كل النظم القديمة على أساس يتمكن معه من مواكبة الجديد والانسجام معه . وهذا يعنى ضرورة الاستجابة الصحيحة التى تتصدى للتحديات الجديدة .

من عوامل انهيار الحضارة أيضا أن القلة التى اتسمت بالخلق واستجابت لتحدي القديم تسمى أقل استجابة للتحديات الجديدة . وهنا تظهر قلة جديدة تستطيع مجابهة التحدى الجديد . ولذا فإن القلة « القديمة » تقف موقف المعارضة من القلة الثانية ، لأن الأولى قد احتلت مناصب قيادية هامة لا ترغب فى التنازل عنها ، ويتشجع هؤلاء القدامى على المجازف أى أنهم يتخذون موقفا سلبيا غير أخلاقى يتسم بالأنانية وحب

(٢٨) Ibid., p. 120 : « The greatest danger to Man is Man », as quoted from C.F. Volney's Les Ruines, : « La source de ses calamités réside dans l'homme même, il la porte dans son coeur ».

(٢٩) Ibid., p. 132 : « A society breaks down through a loss of harmony between its parts which is paid for by the society as a whole in a loss of self-determination ».

(٣٠) Ibid., p. 133, quoted from St. Matthew, ix. 16-17 : « Neither do men put new wine into old bottles - else the bottles break and wine runneth out and the bottles perish ; but they put new wine into new bottles, and both are preserved ».

الذات • والسلبية تجاه الحاضر تنبع عند بعضهم من افتتان بالماضى ، وهذا الافتتان ضرب من ضروب عبادة الأصنام ، التى ان هى الا عبادة المخلوق لا الخالق • وقد يتخذ هذا الاثم شكل عبادة الشخص لذاته أو لتراث مجتمعه فى فترة معينة بالذات ، دون النظر الى القوانين الدينامية التى تفرضها التحديات الجديدة وضرورة الاستجابات بأساليب جديدة أيضا • وأسوأ هذه العبادات الصنمية هى عبادة الذات ، ذلك أنه ما لم يعمل الفرد على ذاته المائتة ليتحلى بتطلعات انسانية أرقى - على حد تعبير تيسون - فان الفرد يصبح عابدا لصنم نفسه ، وهو بهذا يبتعد عن الحياة وعن المشاركة مع الآخرين فى معبده النرجسى الخاص ، تماما مثلما يفعل أو كان يفعل واحد من الرهبان العموديين الذين يعلقون أنفسهم على قمة أحد الأعمدة ويقبعون هنالك فى انفصام مزر عن مجتمع اخوانهم من البشر (٣١) •

وأبرز مثال فى التاريخ على عبادة الذات والتشنج على زمن تاريخى قد باد ، هم اليهود • فقد بدأ تاريخهم فى اطار الحضارة السورية ، وبلغ قمته على عهد أنبيائهم ، ثم نجح بنو اسرائيل ويهوذا فى الوصول الى فكرة التوحيد ، فملأ الغرور رأسهم وادعوا أنهم « شعب الله المختار » • وقد أعماهم هذا الزهو فتردوا فى خطأ مبين هو عبادة ذاتهم والتثبت عند مرحلة تاريخية قد غفى عليها الزمان ، وتخلوا من خلال هذا الوهم

Ibid., pp. 261-262 : « If it is indeed the truth

(٣١)

« That men may rise on stepping-stones
of their dead selves to higher things, »

than the idolator who commits the error of treating one dead self, not as a stepping-stone, but as a pedestal, will be alienating himself from the life of God as conspicuously as the Stylite devotee who maroons himself on the Summit of a lonely column dissevers himself from the world of men ».

الزائف أن السماء تمطرهم الإمتياز والرفعة على سائر مخلوقات الأرض ،
فأصيبوا لهذا كله بالعقم (٣٢) .

كذلك تردت في نفس الخطأ مدينة آثينا التي ركبها الغرور على أنها
« المعلم الأول لليونان جميعا » وظلت متجمدة عند منجزات صولون
وعصر بركليز « الذهبي » وغفلت عن متطلبات التغيير وتبدل الأحوال .
ولذا فانها لم تلبث أن اصطدمت بأسبرطة ثم انهارت سنة ٤٠٤ ق م ، ثم
وطأتها حوافر الخيل المقدونية وأجهزت عليها في النهاية الفيالق الرومانية .
ان آثينا لم تتعلم شيئا من الكوارث التي ألمت بها تباعا ، ولم تحاول أن
تحرر نفسها من رق « عبادة نفسها » ، فظلت تعيش في أوهام الماضي تجتر
مواظ بركليز ومقننات صولون (٣٣) .

من عوامل انهيار الحضارات أيضا ازدياد دق طبول الروح العسكرية
لتغلب روح الحرب على نفوس أبناء المجتمع ، ويؤدي ذلك الى الانتحار
(Suicidalness of Militarism) والأمثلة على هذا كثيرة من واقع
سجلات الاشوريين (القرن ٧ ق م) ، ومن سيرة شلمان وتيمورلنك ،
وغيرهما كثير .

ولا يقل خطرا عن العوامل السابقة آفة « سكرة النصر » ومن أمثلة
ذلك ما أقدم عليه الكرسي البابوي في روما في صراعه ضد السلطة الزمنية
في ألمانيا . وأبرز رجالات ذلك الصراع هو هلد براند (غريغوري السابع)
الذي أسكره النصر بعد نجاحه في إذلال خصمه الألماني هنري الرابع عند

(٣٢) Ibid., pp. 262-263 : « In this delusion - which was a moral as well as an intellectual fault — the Jews « rested on their oars » when they were called upon to respond to a new challenge They persuaded themselves to be God's Chosen People ».

(٣٣) Ibid., p. 264 : « On the political plane no culmination of disasters ever availed to shake Athens out of the " Sacred egoism " which Pericles had taught her to regard as a duty to herself that her past services to Hellas entitled her to cultivate in perpetuity ».

قلعة كانوسة ، فتخطى كل الحدود وجاوز صلاحياته • وقد أدى به هذا
الغرور الى المنفى ، وجلب موقفه الضياع لجهود البابوات المصلحين من
أسلافه ، وأدى أيضا الى خراب للمدينة على يد حليفه المتهور روبرت
جويسكارد النورماندى • لقد جر هلد براند — بسبب طموحه الزائد
وغروره الشخصى — الخراب على روما وعلى الكنيسة الغربية كلها •
واتسع الصراع على يد تلميذه انوسنت الرابع فى صراعه مع فردريك
الثانى فامتد لهيب العداوة من مذبح كاتدرائية القديس بطرس فى روما
ليغلف غرب أوروبا اللاتينية جميعا (٢٤)

بعد الإنهيار يأتى دور الإحتضار • ومن مظاهر ذلك انتشار الفصام
فى جسم المجتمع فيتمزق كيانه • ويواكب هذا الخلل انفصام فى الروح
حيث تظهر الفلسفات الانهزامية مثلما كانت الحال فى القديم مع الايقوريين
والكلبيين والدواقين ، وقد يتطرف هذا الاتجاه الى حد « حب الموت »
تحت ستار « الاستشهاد » وما هو فى حقيقة الامر الا ضرب من ضروب
الانتحار ، هروبا من مشاكل الحياة وتحدياتها • وتنعكس مظاهر التمزق
على انتاج المجتمع فترى فيه العث فى الأدب والسوقية والتبربر فى الفن
والاسفاف فى الموسيقى والمسرح •

تلكم هى « أوقات المتاعب » التى تشهد قيام « الدولة العالمية » •
وفى ثنايا هذه الأوقات تنشأ « الكنيسة العالمية » التى تستغل نظام الدولة
العالمية فى تقوية ذاتها حتى تصبح هى الأخرى مؤسسة كبرى سرعان ما
تنافس الدولة • ولذا فإن رجالات « الدولة العالمية » سرعان ما ينقلبون
على تلك « الكنيسة العالمية » بسبب ازدياد نفوذها ، ثم انهم يعملون على

(٢٤) Ibid., p. 353 : « In 1085 Rome had just been looted and burnt by the Normans, when the Pope (Hildebrand) had called in to assist him in a military struggle which had spread from the steps of St. Peter's altar — the Papal treasury — until it had engulfed the whole of Western Christendom ».

انتخلص منها فيلصقون بها شتى الاتهامات ويشيرون اليها على أنها المسؤولة عن كل الكوارث التي تحل بالمجتمع . ويتضح هذا الصراع الأزلى في تلك الأحداث التي وقعت في القرنين الثالث والرابع للميلاد بين الامبراطورية الرومانية (الدولة العالمية) وبين المسيحية (الكنيسة العالمية) . ويرى توينبى أن « الكنيسة » لها ما يبرر وجودها لأنها الاطار الوحيد الذى يحافظ على ما قد تبقى في الدولة من حضارة ، فهي أشبه ما تكون بالشرقة التي تصل بين مرحلة هلاك حضارة ومولد أخرى (٣٥) .

وعندما يلقي الكاتب نظرة على الحضارات المتبقية في عالم اليوم (١٩٥٢ م بالنسبة لتوينبى) يرى في خلفية كل منها « كنيسة عالمية » تمكنت من خلالها من أن تدخل بالبنوة في أحضان حضارة أكثر عراقة : فحضارتا المسيحية الغربية والارثوذكسية قد تسلتتا عن طريق « الكنيسة » الى الحضارة الهلينية ، ودخلت بلاد الشرق الاقصى عن طريق الماهايانا (Mahayana) الى الحضارة الصينية ، ودخلت الهند عن طريق « الكنيسة » الى الحضارة الهندوكية ، ودخل الايريانيون والعرب عن طريق الاسلام الى الحضارة السورية .

ان المهمة التي تضطلع بها « الكنيسة العالمية » مهمة حضارية بالغة الخطورة ، ذلك أنه في حين أن « الدولة العالمية » تجاهد للمحافظة على توازنها خوفا من السقوط النهائي بأساليب القمع والردع والتخويف والاحباط ، تمد « الكنيسة » يدها الى الطاقات الانسانية المتخوفة والمتراكمة وتفتح لها آفاقا جديدة أو قنوات لتوجه من خلالها زفرات الضيق في أسلوب ايجابي . ويتتابع عمل « الكنيسة » على مراحل ،

(٣٥) Toynbee, A., vol. VII, p. 393 : « The writer of this Study had to confess that he, too, had been satisfied for many years with their rather Patronizing view of the Churches' rôle and nature ; and he still believed that this conception of Churches as Chrysolises, unlike the conception of them as cancers, was true as far as it went ».

تبدأ « بالحمل » أى امتصاص الطاقات التى تعجز الدولة عن استغلالها نظرا لاصابتها بالشلل ، ثم تأتى مرحلة « الهضم » وتوجيه الطاقات فى قنوات تتسع لتفريغ الامكانيات المكبوتة واستغلالها استغلالا ذكيا . وهكذا فانه بينما تأخذ « الدولة العالمية » فى الهبوط تأخذ « الكنيسة العالمية » فى الصعود .

وأخيرا ينتقل الكاتب الى معالجة « الصدام » بين الحضارات ، ويكرس مسافة كبيرة لمعالجة الحضارة الغربية . إن شعوب البلدان الأخرى - كما يقول توينبى - ترى بداية الحضارة الغربية فى لحظة رسو سفن المستكشفين الغربيين على شواطئ ما وراء البحار . فعند أهل الشرق الاقصى يبرز الرجل الغربى (Homo Occidentalis) كمخلوق « بحرى » متبربر وافد من الجنوب . أما من وجهة النظر الأوربية فان حضارتهم تبدأ مذ لحظة أن « شكر الأوربى نفسه لا سمواته فى تحرره من عقلية العصور الوسطى المسيحية وأغلالها » . ومن كلا التعريفين يمكن القول أن الحضارة الغربية تبدأ فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر .

ثم يعالج الكاتب تلك الصدمات التى وقعت بين الحضارة الغربية وحضارات العالم الخارجى : فى روسيا ، والهند ، والعالم الاسلامى ، والشرق الأقصى ، ومع الهنود الحمر . ويستخلص من هذه الدراسة أن الحضارة الغربية مهددة بالانهيار . ومن بين العوامل التى أسهمت فى تصدع الحضارة الغربية عودة الأوربيين الى نظام الرق الذى كان سببا فى انهيار الحضارة الهلينية قديما ، وقد تفشت آفة الرق مع التوسع الإستعماري الأوربى وفى ركب الثورة الصناعية . ولم يبلغ الرق إلا بفضل جهود التيار الديمقراطى الذى فجره ابرهام لنكولن . أما عن الحروب الطاحنة التى اكنوت بها الحضارة الغربية فهمى من فعل ثورتها الصناعية ، ولولا مقاومة النظم الديمقراطية لازداد الإستعمار جنونا . ويرجع الكاتب

انفضل فى كبح جماح الحروب الى منظمات الأمم المتحدة ، التى يسند عليها الأمل الكبير ويعترف توينبى - فى مرارة - أن مركز الصدارة اليوم قد خرج من أيدي الحضارة الغربية وآل الى القوتين العظميين أمريكا وروسيا . وهو يتساءل فى حيرة : « كيف كان ذلك ؟ » وهذا السؤال بعينه هو الذى حرك الكاتب الكبير لان يمسك بقلمه ويغوص فى سجلات الماضى السحيق عبر حضارات الانسان لعله يستبصر كيف دخلت تلك المجتمعات فى « بوابة الموت » (٣٦)

إن المبادئ التى يسير عليها أرنولد توينبى فى « دراسته » للتاريخ مبادئ مستعارة من مناهج العلوم الطبيعية التى تقوم أساسا على العلاقات الظاهرية . ذلك أن العالم الطبيعى يعالج حقائق منفصلة ومحسوسة يمكن حصرها ، وبمعنى آخر انه فى مقدور عالم الطبيعة أن يخضع الظواهر الطبيعية التى يلاحظها الى عدة حقائق يمكن حصرها ، ثم انه يمضى ليحدد العلاقات بين هذه الأجزاء ، وهى روابط تصل الحقيقة بحقيقة أخرى خارجة عن ذاتها . ومجموع الحقائق التى يتوصل اليها عالم الطبيعة من خلال هذا المنهج تكون أمامه حقيقة أكبر لها روابط هى بدورها بحقائق كبرى أخرى من النوع نفسه . ولكى يكون عمل العالم الطبيعى واضحا وسليما فلا بد له أن يفصل بخط واضح بين حقيقة وأخرى ، بمعنى أنه لا يجب أن يحدث هنالك أى تداخل .

والملاحظ أن هذه المبادئ نفسها الخاصة بعالم الطبيعة هى نفس المبادئ التى سار عليها توينبى فى « دراسته » للتاريخ : فهو - كما

(٣٦) « What was this « Door of Death » through which so many flourishing Civilizations had already disappeared ? This question led the writer into a study of the breakdowns and disintegrations of Civilizations ; and thence he was led on into a complementary study of their geneses and growths. And so this Study of History came to be written ».

لاحظنا - يقسم حقل الدراسة الى وحدات أو « حضارات » ، وتمثل كل منها تكاملا ذاتيا •

ان ما يشغل توينبى فى الدرجة الأولى هى نوعية الإجابة على السؤال الآتى :

هل نعتبر مجتمع غرب أوربا المسيحى استمراراً للحضارة الهلينية ، أم أنه مجتمع مختلف تماما لا تعدو صلته بالهلينية حدود « النبوة » ؟

ان توينبى يلقى بثقله وراء التساؤل الأخير بالاثبات • وهذا يعنى أن الكاتب الكبير لا يقر القول بأن الحضارة الهلينية قد تحولت (تاريخيا) الى حضارة غرب أوربا المسيحية فى عملية تاريخية هى حقيقة التطور التاريخى ، تلك العملية التى انبثقت خلالها بعض العناصر ، وذبلت وماتت عناصر أخرى ، ثم انطلقت مكونات حضارية جديدة من عناصر جديدة مشتق بعضها من ذاتها ومقتبس بعضها الآخر من منابع خارجية •

والتفسير الفلسفى لهذا القول الأخير يسمح بالقول بأن الحضارة يمكن لها فى تطورها أن تأخذ أشكالا جديدة ، مع بقاء بعض العناصر القديمة التى تمثل حضارة من حيث هى وقدمها • وهذا ما لا يقبله توينبى ، فالرأى عنده أن الحضارة التى « تتغير » تكف عن الحياة أو تنقرض ، لتحل محلها حضارة مغايرة تماما • وما ينطبق فى رأى توينبى على البعد الزمانى فى نظريته ينطبق أيضا على البعد المكانى • هذا الى أن نظرية توينبى تفرض فواصل مصطنعة وقاطعة بين حضارة وأخرى ، وهذا يلغى مفهوم تفاعل الحضارات واحداً منها مع الأخرى •

وتتضح حدة هذا الرأى عند توينبى عندما نطالع فى « دراسته » - على سبيل المثال لا الحصر - قوله « بتحجر » الحضارة المصرية التى

كانت ، وبأنه لا يوجد اليوم من يمثلها من البشر ولم يتبق منها شيء من ملامحها العريقة (٣٧) .

ان منطلق توينبى فى « دراسته » للتاريخ هو منطلق الفلسفة الوضعية التى تفصل الذات عن الموضوع فصلا تعسفيا بحد من السكين : فالباطن والظاهر كلاهما « فردى مستقل » . ولكن هذا الفرض لا ينطبق الا على حجر أصم أو أى جماد مشابه ، ولذا فإنه لا يصلح فى معالجة التاريخ . ان التاريخ هو سجل أعمال الانسان صاحب العقل الذى يستوعب دائما أبدا ويمتص الخبرة من خارج ذاته من عوامل البيئة وظروف الطبيعة ، ثم تمتزج تلك العوامل التى كانت خارجية مع عمق الذات الانسانية لتصبح احساسا ووجدانا وفكرا . ان تاريخ البشرية — من هذا المفهوم — هو تاريخ العقل والتطور ، وبمؤدى هذا الاقتناع فإن الخبرة الماضية هى خبرة عقلية ، تصبح أمام دارس التاريخ خبرة حاضرة ، وهنا يتحول الماضى الى حاضر .

يضاف الى كل هذا أن أرنولد توينبى قد اعتمد فى مصادره لدراسة التاريخ وتتبع قصة مولد الحضارة ونموها وتدهورها اعتمادا كاملا على المصادر المكتوبة ، ولم يتوقف لجمع مادة من آثار تلك الحضارات ، وفى هذا اغفال بالغ الخطورة لمن يتعرض لمولد الحضارة ، الى حد جعل الكاتب جلين دانيال يقول : ان توينبى فى « دراسة التاريخ » قد أغفل اغفالا كبيرا قيمة الآثار القديمة وعلى وجه الخصوص ما تبقى لنا على وجه الزمان من

(٣٧) « The Egyptiac Society » Vol. I, pp. 128-129 : « Toynbee, A., Op. Cit., Vol. I, pp. 128-129 : « The Egyptiac Society » is not represented in the world of our day, as far as we can see, by any human heirs or assigns — not by any fossil of itself and not by any living society to which it might be either « apparented » or related in some less intimate way ».

العصور السابقة لظهور الكتابة لانسان ما قبل التاريخ (٣٨) .

كما أن الدكتور اجناشيو برنال، مدير المتحف القومى للانثروبولوجيا فى المكسيك ، قد صرخ فى ندوة عقدت سنة ١٩٦٣ عن تاريخ انسان ما قبل التاريخ فى أمريكا ، قائلا : « لقد حاولت مرة أن أطبق منهج توينبى فى مولد الحضارات ونموها وانهيارها على ما قد تجمع لدى من حقائق أركايولوجية ، ولكن وضح لى أن كل ما اعتمد عليه توينبى من مادة فى هذا الخصوص غير صحيح ومجزأ وغير مقبول لدى الاوساط العلمية العامة وانتهيت الى القول بأنه يحق لكل كاتب فى عالمنا الحر الذى نعيشه اليوم أن يكتب ما يحلو له من سخافات » (٣٩) .

على أننا نود أن ننبه فى النهاية الى أن هذا النقد ، وان كان تقدا علميا وموضوعيا ، لا يقلل من شأن دراسة التاريخ عند توينبى ، لانها اضافة عملاقة شملت قصة الحضارة منذ فجر التاريخ حتى عصرنا الحاضر، ولا يمكن أن نطالب المؤرخ بأن يكون فى الوقت نفسه عالما للآثار ، كما أن توينبى - على ما يبدو - لم يكرس هذه « الدراسة » لانسان ما قبل التاريخ بقدر ما هى سجل لحضارة الانسان التاريخى صاحب السجلات المكتوبة .

(٣٨) Daniel, Glyn, The First Civilizations, London, 1968, p. 17 : " His admittedly monumental, A Study of History markedly neglects the evidence of the monuments of history, notably the minor monuments which « time hath spared », the artifacts of the preliterate people from which prehistory is written".

(٣٩) Bernal, Ignacio, Prehistoric Man in the New world (Chicago, the University Press, 1964), p. 562 : « my efforts were received with a sad smile, which seemed to say, we live in a free world and every man is entitled to a little foolishness ».